المعجم العربية التراثية:

لقد دعت الحاجة الى تدوين اللغة العربية في معجمات؛ وذلك لتمكين أبناء المجتمع العربي من حفظها وتعلمها، وحراسة القرآن الكريم من يقتحمه خطأ في النطق أوالفهم ، وحماية العربية من أن يقتحم حرمها دخيل ل اترضى عنه، وصيانة هذه الثروة من الضياع ، وكذا الإحاطة والاستزادة من كثير من المعلومات التي توضح ما يحيط بالمادة الأساسية فيه الا وهي الكلمة، فكانت لغة حافلة بالمعجمات، بعد أن اهتدى علماؤها بجمع اللغة وروايتها شفهيا، ثم مرحلة التدوين والكتابة في دفاتر ورسائل لغوية، خاصة في النوادر والغريب والأسماء والصفات، وكان القرآن الكريم هو الحافز الذي يشدهم الى ذلك ، وفي هذا الصدد يقول ابن خلدون(737هـ-808هـ): " فاحتيج إلى حفظ الموضوعات اللغوية بالكتاب والتدوين خشية الدروس وما ينشأ عنه من الجهل بالقرآن والحديث، فشمّر كثير من أئمة اللسان لذلك وأملوا فيه الدواوين"[1].

وقد أدرك المعجميون العرب لجانبين مهمين في طبيعة الكلمة التي تكون المعجم وهما: جانب اللفظ، وجانب المعنى؛ وقد اختلفوا في أسلوب تناول المادة اللغوية، وطريقة العرض، كما اختلفوا في التردد على مظانّها، ومصادر روايتها، مما أفضى الى ظهور نوعين من المعجمات اللغوية، هما معجمات الألفاظ ومعجمات المعاني.

معجمات الألفاظ:

ويراد بها تلك المعجمات التي تضم أكبر قدر من مفردات اللغة مقرونة بشرح وتفسير معانيها، وله ترتيب خاص، وأول هذه المعجمات:

" **معجم العين للخليل بن أحمد الفراهيدي (ت175هـ)**"؛ هذا الرجل الذي شكل بحق مرسة سميت باسمه؛ أي مدرسة الخليل، ونال بحق رتبة إمام هذه المدرسة وإمام المعجميين بعامة؛ فإليه يرجع الفضل في شق طريق التأليف المعجمي، ودلّهم علية بمعية "إسحاق بن مرار أبي عمرو الشيباني الكوفي "(94هـ-213هـ)، وقوام مدرسته ترتيب المواد على الحروف بحسب مخارجها؛ حيث رتبها ابتداء من الحلق كالاتي: ع، ح، هـ، خ، غ، ق، ك، ج، ش، ض، ص، س، ز، ط، د، ت، ظ، ذ، ث، ر، ل، ن، ف، م، و، ي، همزة، وهو ترتيب ابتدعه الخليل

(1) ابن خلدون، المقدمة، ص484

بدراسة ذوقية علمية[1]. معتمدا في ذلك على جهاز النطق، غير راض بالترتيب الأبجدي القديم، ذاهبا إلى أنّ أقصى مخرج في الحلق، هو حرف "العين"، مبتدئا بالأعمق في الجوف، منتهيا بالشفتين، وما عرف عنه أنّه كان يتذوق الحروف بلسانه، فكان يفتح فاه بالألف ثمّ يظهر الحرف، بأن وضع قبل كل حرف همزة وسكن الحرف، على هذا النحو، أب، أت، أث، أح، أع، أغ ...الخ، مستفيدا من مهارته الرياضية والموسيقية، ووجد العين أدخل الحروف في الحلق[2]، فجعلها أول الكتابُ ثمّ ما قرب منها الأرفع فالأرفع، حتى أتى على آخرها وهو الميم، وقد روى عن الخليل – رحمه الله– أنّه بدأ بالعين دون سواها من أصوات الحلق لأسباب تتبين من قوله: "لم أبدأ بالهمزة لأنها يلحقها النقص والتغيير والحذف ولا بالألف؛ لأنها لا تكون في ابتداء كلمة ولا اسم ولا فعل إلا زائدة أو مبدلة، ولا بالهاء لأنها مهموسة خفية، لا صوت لها، فنزلت إلى الحيز الثاني، وفيه العين والحاء فوجدت العين أنصع الحرفين، فابتدأت به ليكون أحسن في التأليف...." [3]، معتمدا نظام الكمية[4] في مادته المعجمية؛ إذ رأى أنّ الكلمات العربية باعتبار أصولها إمّا أن تكون ثنائية أو ثلاثية أو رباعية أو خماسية؛ إذ يقول: "كلام العرب مبني على أربعة أصناف: على الثنائي و الثلاثي والرباعي والخماسي، فالثنائي على حرفين نحو: قد ولم... والثلاثي من الأفعال نحو قولك: ضرب... و من الأسماء نحو: عمر... والرباعي من الأفعال نحو: دحرج.. ومن الأسماء نحو عبقر... والخماسي من الأفعال نحو اسحنكك واقشعر... ومن الأسماء نحو سفرجل... وليس للعرب بناء في الأسماء ولا في الأفعال أكثر من خمسة أحرف. فمهما وجدت زيادة على خمسة أحرف فسي فعل أو اسم، فاعلم أنها زائدة على البناء، وليست من أصل الكلمة[5].

وقسم المعجم الى كتب، وفرّعت الكتب إلى أبواب بحسب الأبنية، وحشد الكلمات في الأبواب، وتقليب اللفظة على أوجهها المختلفة ومن جراء تقليب الكلمات وجد أن الثلاثي يعطيه ست مواد، والراعي يعطي ارع وعشرون مادة والخماسي يعطي مائة وعشرون مادة.

---

(1) رشيد عبد الرحمان العبيدي، العربية والبحث اللغوي المعاصر، منشورات المجمع العلمي، بغداد، 2004, ص114

(2) الخليل بن أحمد، مقدمة العبن، مج1، تعليق الناسخ، ص34

(3) الخليل بن أحمد الفراهيدي، مقدمة العين، مج1، ص35

(4) محمد بن سعيد الشبيني، معالجة المادة المعجمية في المعاجم اللفظية القديمة.

(5) الخليل بن أحمد الفراهيدي، مقدمة العين، مج1، ص35

وعلى الرغم من قيمة العين العلمية إلا أنّها لم تسلم من النقد، وقد انتقد كثير من علماء العربية كتاب "العين" في أنّه أهمل مواد كثيرة، استدركها عليه المتأخرون وأنّه فسّر أشياء على غير وجوهها الصحيحة، وكذا اشارته الى استعمال ألفاظ، لم تكن من كلام العرب وغيرها من المآخذ.

وقد عيب على هذا النظام صعوبة البحث، وصعوبة الاهتداء الى اللفظ المراد بسب بقيامه على المخارج والأبنية والتقليبات، وهذا ما لمسه بعض المعجميين القدماء أنفسهم؛ فهذا ابن دريد (332هـ) يقول في مقدمته عن الخليل وكتاب العين: "... وقد ألّف أبو عبد الرحمان الخليل بن أحمد الفرهودي رضوان الله عليه كتاب العين فأتعب من تصدى لغايته وعنى من سما الى نهايته، فالمنصف له بالغالب معترف، والمعابد متكلف، وكل من بعده له تبع"[1]، ثمّ نراه يلتمس العذر للخليل بقوله: "... ولكنه رحمه الله ألّف كتابه مشاكلا لثقوب فهمه، وذكاء فطنته، وحدّة أذهان أهل دهره"[2].

وعلى الرّغم من هذه الهنات إلا أنّ ذلك لم يثن بعض روّاد التأليف المعجمي من السير على نهجه، فقد التزمه الأزهري في معجمه "تهذيب اللغة" والصاحب بن عبّاد في "البارع"، ثم انتشرت مبادئ مدرسة ثانية، وهي المدرسة "الألفبائية" ويعود الفضل فيها إلى أبي عمر الشيباني في كتابه "الجيم" ثم تبعه ابن دريد في "الجمهرة" وابن فارس في "المقاييس" و"مجمل اللغة" والزمخشري في "أساس البلاغة"، ولم يكن هؤلاء الرواد مقلدين في كل شيء بل خالفوه في بعض منهجه، وأضافوا الى طريقته أشياء جديدة، فعدّ هذا الجديد ثمرة تطور التأليف المعجمي الملحوظ.

ولم يسلم هذا المنهج من النقد بسبب صعوبة الطريقة التي تناولت بها المفردات، الشيء الذي أدى الى صعوبة الاستفادة منها، مما دفع ببعض العلماء العربية إلى التفكير في طريقة جديدة، سهلة المأخذ للمادة اللغوية، وتكلل ذلك بظهور مدرسة معجمية ثالثة، تتبنى النظام الألفبائي وفق أواخر الكلمات تبناها الجوهري في معجمه "تاج اللغة وصحاح العربية"، ثمّ تبعه ابن منظور في "لسان العرب" و الفيروز أبادي في "القاموس المحيط" و الزبيدي في "تاج العروس". ثم تبعهم الصاغاني في معجماته المشهورات " التكملة والذيل والصلة" و" مجمع البحرين" و" العباب".

---

(1) *ابن دريد، الجمهرة، ج1، ص3*

(2) أبو الطيب اللغوي، مراتب النحويين، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، القاهرة، ص45

غير أنّ هذا المنهج "يسمى نظام القافية" او "نظام الأبواب والفصول" حيث أن الحرف الأخير من الكلمة يسمى بابا والحرف الأول منها يسمى فصلا ومع إلزام الترتيب الفصول بين الأول والثاني في الثلاثي والأول والثاني الثالث في الرباعي.

غير أنّ المعجمات المعاصرة اعتمدت النظام الالفبائي وفق الأوائل كالمعجم الوسيط والوجيز والكبير لمجمع اللغة العربية وغيرهم...

وهكذا ظل أصحاب معجمات الألفاظ يعتمدون في جمع مادتهم المعجمية على الرواية النقلية عن السابقين حتى رأينا ذلك واضحا عند المتأخرين منهم صاحب "المقاييس" وصاحب اللسان وصاحب التاج، فقد ذكر الأول انّه اعتمد في جمع مادته المعجمية على خمس كتب هي: كتاب العين للخليل، وإصلاح المنطق لابن السكيت، والجمهرة لابن دريد، وغريب الحديث، ومصنف الحديث لابي عبيد، حيث يقول فيم قدمته: "فهذه الكتب معتمدنا فيما استنبطناه من مقاييس اللغة وما بعد هذه الكتب فمحمول عليها وراجع إليها"[1].

ويفصح ابن منظور في" اللسان" عن أنه نقل معجمه عن سابقيه كتهذيب اللغة للأزهري، والمحكم لابن سيده، والصحاح للجوهري، والحواشي لابن بري، والنهاية لابن الأثير، وفي ذلك يقول: "وقد نقلت من كل أصل مضمونه، ولم أبدل منه شيئا، بل أديت الأمانة وما تصرفت فيها بكلام غير ما فيها فليعتد من ينقل عن كتابي هذا أنه إنّما ينقل عن هذه الأصول الخمسة، وليعن عن الاهتداء بنجومها فقد غابت لمّا أطلعت شمسه"[2].

ويذكر الزبيدي صاحب "التاج" أنّه جمع مادته المعجمية مما يقرب من مائة وعشرين كتابا من بينها المعجمات: كالجمهرة والتهذيب والمحكم والصحاح والمجمل ولسان العرب، والتكملة وأساس البلاغة وغيرها[3]....

وخلاصة القول أنّ علماءنا الأوائل أثروا اللغة العربية بكثير من المصنفات المعجمية، مستفيدين من بعضهم، وكان يشدّهم في ذلك التنافس العلمي، وتقديم نتاج ذي أهمية علمية.

---

(1) ابن فارس، مقدمة مقاييس اللغة، ج1، ص292

(2) ابن منظور، لسان العرب، مج1، ص8

(3) ينظر، الزبيدي، تاج العروس، ج1، ص5